# بصدد تحريفيي الأدب

# و دعاة الفن في ذاته

**الشرارة الثقافية**

في عام 1923 صدر لجورج لوكاتش كتاب قيم "الأدب و الفلسفة و الوعي الطبقي". طبعا لن نتعرض لأهمية الكتاب ، لا في عصره آنذاك ، و لا في عصرنا نحن اليوم. إنما سننقل نصا شديد التركيز يعالج مسألة ملحة في الأدب عموما : المسألة التي يطرحها كل أديب ، و هو ينغمس في الإبداع ، كما يطرحها كل قارئ / متلقي و هو منغمس في استهلاك ما أنتجه المبدع ، و أشر عليه أنه "أدب" ، سواء كان رواية أو شعرا أو جنسا قصصيا أو سينما أو غير ذلك.

النص اللوكاتشي المأخوذ من مقالة "نهاية برنار شو" هو:

"مسرحية برنار شو الجديدة "العودة إلى ميتوشالح" ما كانت لتستأهل أي شهرة ، لا من وجهة النظر الفنية ، و لا من وجهة النظر الفكرية ، لو لم يكن شو كاتبها"..

و إذن يبدو فعلا ، أننا مجبرون على إعادة طرح قضية الأدب على عصرنا الأدبي في المغرب من جديد ، باستلهام مقولة جورج لوكاتش حول مسرحية برنار شو "العودة إلى ميتو شالح". لكن قبل ذلك نخبر القارئ أن "شو" لم يكن كاتبا "عديم الرهان" ، لا حين قرأه وسمعه عصره ، و لا كما قرأته الأجيال التالية. ففي جل أعماله إنما يفضح "الرياء النوعي للمجتمع البرجوازي" ، و هو الذي شارك بفعالية في "الحركة العمالية والنقابية الأنجليزية " ، و ظل قريبا من الإشتراكية ، عبر الزوجين .سيدني وبياتريس ويب ..

سنعيد طرح الإشكال على النحو التالي:

(هل"المنتوج الأدبي في المغرب الآن" يستأهل الشهرة ، من وجهة النظر الفنية ، كما من وجهة النظر الفكرية ؟)..

عوامل أخرى كثيرة ، يمكن أن تتحكم إلى حد بعيد في "شهرة" الأدب و امتداده عبر التلقي. و مع ذلك فهي عوامل لا تمس المؤلف الأدبي في حد ذاته ، لا من "وجهة النظر الفنية" و لا من "وجهة النظر" الفكرية .و هي غالبا ترتبط بالسوق الأدبي إنتاجا و توزيعا.

لكن عوامل أهم من ذلك تجعل الأدب "أدبا" ، و الإبداع "إبداعا" ، تنهض من خلال ديالكتيك البناء الداخلي للنص

(الشكل كما في الفلسفة) و المضمون الفكري (الجوهر كمقولة فلسفية) ، هذا المضمون ليس في آخر المطاف سوى "البنية الدالة" ، يتمظهر فيها المعيش/ المجتمع بكل تناقضاته و بكل زفراته و رغباته في تجاوز الأشكال و المضامين الجامدة نحو واقع جديد أرقى وأصلح.

لا نرى في نظريات "الفن من أجل الفن" سوى خواء و أنانية برجوازية ، حاولت ضرب "الإقامة الجبرية" حول النص الأدبي ، و عزله عن الطموح الجماهيري في بناء الحرية المنشودة. إذ ما درجة هذا الجمال الذي يراه "نقادنا الأذكياء جدا" في مجرد هيكل فارغ من أي جوهر شعبي ، و من أي دلالة اجتماعية. إن أنصار "الفن في ذاته" يتخيلون وجود قيمة ما في المتن الأدبي ، خارج قيمته الاجتماعية. و مع ذلك فهم يريدون من المجتمع أن "يشتري سلعتهم" .

لا نعرف نصا أدبيا واحدا نما في جزيرة معزولة :خارج صراع الطبقات .إن الأدب لم يوجد ، و لا ينبغي له أن يوجد ، إلا من أجل المجتمع. و للأسف ، فإن الكثيرين من النقاد و الأدباء في المغرب اليوم يتبرمون من رؤية المجتمع و طبقاته بالأساس تتحرك و تتنفس أمام أعينهم داخل أي نص إبداعي ، و كيف ما كان نوعه و شكله الجمالي.

لم تعد الأجناس الأدبية حاضرة بقوة في مغرب ما بعد التسعينيات ، و ليس السبب الوحيد ، كما يزعم الكثيرون من أنصار "الشكلانيات" و "الجماليات" هو غياب القارئ ، فالمشكلة الأساسية تكمن في "حركة الطبقات" في العشرين عاما الأخيرة ،و أهم من ذلك هجرة الطبقة المتوسطة "الأنتليجنسيا" المغربية بالخصوص نحو "الشمال" : شمال الهرم الطبقي .إن ما يشبه "الطلاق " ، حصل في هذه الفترة بالذات بين المثقف عموما و الأديب خصوصا ، و بين الطبقة الشعبية. لكن السؤال الذي لم يدرس بكفاءة بعد هو: من "طلق" من ؟

نظن بكثير من الحزم ، أن الطبقات الشعبية ليس لها أي معبر الآن. لا من وجهة النظر الثقافية ، و لا من وجهة النظرالأدبية. فالنصوص الروائية التي كانت "تشتي" بها السماء ، و "تنهض" الأرض لم يعد لها وجود الآن. أما الصبيب القصصي الذي تدفق عاليا في مراحل سابقة ، فهو يكاد ينقطع .هذا إذا استثنينا بعض المحاولات في القصة القصيرة جدا .و الدواوين الشعرية التي ألهمت الجماهير الشعبية منذ الاستقلال الشكلي ، و أطرت الثقافة الشعبية التقدمية بالقيم الديمقراطية ، و قضايا التحرر و الانعتاق ، قد غادرت الساحة لصالح المد الإسلاموي الرجعي و المد الشوفيني . و لم تعد الطبقة الوسطى ، و لا البرجوازية الصغرى ، تعبر عن شيء ذا قيمة.

لهذا بالضبط ، يكثر دعاة "الفن للفن" و"أنصار الشكلانية": تحريفيي الأدب ، الذين إنما يعبرون على هذا الفراغ الواسع الذي خلفته هجرة "المثقف المتسول" نحو التكتل الطبقي السائد.

إن خيبة الأمل هذه ، لن تجد حلها في "رومانسية العصر الفجة" ، و لا في عودة القطيعة بين الجمال و الفن و طبقات المجتمع. إنما الحل لكل هذا الفراغ الفكري ، يكمن في قدرة المثقفين و المبدعين في إعادة "الرابط" بين الإبداع و

المجتمع ، بين الفكر و الوجود المادي ، بين الشكل و المضمون ، بين الفنان و طبقته التي صنعته. و هذا لا يتأتى إلا من خلال مبادرات واعية تروم فضح حملة "فك الارتباط" ، التي يتزعمها الكثير من المثقفين التحريفيين ، و توضيح الوظيفة الطبيعية للأدب و الفن.

18 نونبر 2015